المبحث الثاني

الفواصل المنفردة في أثناء السورة

ذكرت أن أجِلَّة علمائنا القدامى ، وتابعهم المحدثون ، نبهوا إلى أن تغير الفواصل ، وقطع وحدة النغم ، المنبعث من توازن الفواصل وتقارب أصواتها لابد فيه من سر يتعلق بالمعاني والأغراض ، إلى جانب ما فيه من مخالفة التوقع ، وما يصاحبه من الإثارة والتيقظ ، وهو ما نحاول تأييده من خلال الفواصل المنفردة ، التي يحمّلُها النظم الحكيم شحنات دلالية ، تلفت بإيقاعها المنفرد قلب القارئ ، بمثل ما تلفت سمعه إلى غاية تركز عليها السورة ، أو المقطع الذي سِيقت فيه .

والفواصل المنفردة في أثناء السورة تأتي تارة بين فواصل متماثلة في وزنها ورويها ، فتقطع الفاصلة المفردة وحدة إيقاعها ، وتارة بين فواصل متقاربة في وزنها ورويها ، وتارة ثالثة تنفرد بين مقطعين ، يجري الأول منهما على روي ، والثاني على روي آخر ، وتقع الفاصلة المنفردة نهاية للمقطع الأول ، أو بداية للمقطع الثاني ، وأحيانًا تجتمع فاصلتان منفردتان يُختم بالأولى المقطع الأول ، ويُبدأ بالثانية المقطع الثاني .

ولنبدأ بثالث أطول سورة في القرآن الكريم ، وهي سورة النساء ، التي ضمت ستًّا وسبعين ومائة آية ، وبنيت فواصلها على إيقاع واحد ، يرتكز على حرف متحرك مردوف بواو أو ياء ، مشفوع بألف المد المنقلبة عن التنوين ، وقد تعاون المدان بطول البعد الزماني في نطقهما على خلق إيقاع رخي هادئ ،

يتسم بالوقار والجلال ، ويتناسب مع جلال التشريعات والأحكام ، وثقلها على الطباع والأنفس ، وهي تتحول مما ألفته من نُظُم وعادات جاهلية إلى نُظُم وقوانين محكمة ، شاء الله أن يبني بها المجتمع الراشد في ظل الدولة الجديدة ، وأن يقيم بها العدالة في حكم الفرد والأسرة والمجتمع ،ولا شك أن قيام العدل، وإنصاف الضعفاء والمظلومين ، وخاصة اليتامى والنساء يُمثل حجر الزاوية في هذه السورة الكريمة ، ولك أن تقرأ هذه الآيات في مطلع السورة وثناياها وخواتيمها . ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ (النساء:٢،٣) ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ (النساء:٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء:١٠) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء:٥٨) ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (النساء:٧٥) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:١٠٥) ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ (النساء:١٣٥) ، إلى غير ذلك مما هو دليل واضح يجسد الهدف الأسمى الذي تسعى السورة لتحقيقه في المجتمع المسلم ، وهو إقامة العدل المستمد من شرع الله وهديه ، وعدم الجور على المستضعفين والنساء والولدان ومن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وفي السورة ثلاث فواصل منفردة ، اثنتان في أثنائها ، والثالثة في ختامها ، أما اللتان في صلبها فهما فاصلتا الآيتين : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ (النساء:٣)، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ﴾ (النساء:٤٤) .

وقد كان للانفراد والمغايرة في الفاصلة الأولى مفاجأة تلفت انتباه السامع إلى الغاية من التكاليف والشرائع ، التي سنها الله حماية للأسرة ، وهي رفع الظلم وإقامة العدل ، تنبيهًا إلى أن أمان الأسرة واستقرارها هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع الراشد ، وقد تعاون المدَّان في الفاصلة ﴿ تَعُولُوا ﴾ وثقل حركة الضم ، وتوجيه الخطاب المباشر إلى المتلبسين بهذا الجُرْم ، وهو ما لم يكن ممكنًا مع الفواصل المطردة في السورة ، كل ذلك يضاعف من إيقاظ المتلقي ، ويصعِّد درجة وعيه وتنبُّهه ، وحتى إذا ما عادت الفاصلة بعد ذلك إلى إيقاعها المطرد كانت تلك الغاية مصاحبة للقارئ ، وهو ينصت لكل ما يلقى إليه من أحكام وتكاليف ، توخت إقامة العدل ، والقضاء على جور الجاهلية .

والفاصلة المنفردة الثانية لفتت الانتباه إلى تغير مجرى الحديث من أحكام الوصايا والمواريث وحقوق الزواج ، والوالدين والأقارب ، إلى انحراف اليهود وانتكاس فطرتهم ، والتحذير من مؤامراتهم الدائمة لإضلال المؤمنين ، وعداواتهم التي يضمرونها للمسلمين ، وقد لعب تغير الفاصلة وانفرادها دوراً كبيراً في شحذ طاقات الوعي والإحساس بالخطر ، ورفعت درجة التنبه والحذر ، بعد أن مهد النظم الكريم لهذا التغير في الفاصلة بالاستفهام ، الذي صدرت به الآية وما صاحبه من تعجب واستنكار . ومن شأن الاستفهام أن يوقظ الفكر ويستثير الوجدان ، ويجدد في المخاطب نشاطًا وميلاً إلى الإصغاء ، وينقله من طور المشاهد إلى طور الفاعل المشارك في صنع الأحداث ، فتعاون تغير الفاصلة مع تغير الأسلوب في مفاجأة السمع والفكر بما يصل بالقارئ إلى قمة الإثارة والمتعة .

وقد حاكت هذه الفاصلةُ بانفرادها الشاردة من القطيع ، المهددة بالضياع ، وهو شأن كل من يضل السبيل ، ويخرج عن هدي الله تعالى ، الذي يظلل

السائرين في موكب الحق ، وهذا هو دأب اليهود المتمردين دائمًا على الطاعة ، الخارجين عن قانون الله ، وهم يريدون للمؤمنين أن يتنكبوا طريق الحق . فكان انفراد الفاصلة إيماءً إلى هذا الشذوذ ، ونذيرًا بالضياع والهلكة في صحراء التيه والحيرة والضلال .

إن انفراد الفاصلة هنا ، وقطع وحدة النغم ، أمر قصد إليه النظم الحكيم قصدًا ، وإلا فقد كان من الممكن المحافظة على وحدة الإيقاع من غير تعبير في الفاصلة ، سوى إضافة ألف المد ، لتصبح (السبيلا) كما حدث في قوله تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ **وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ** ﴾ (الأحزاب:٦٧) ، وهي الزيادة التي رآها العالم الجليل الدكتور تمام حسان مجتلبة لرعاية الفاصلة ، حيث قال : « ومع ذلك تأتي ألف الإبدال في القرآن في كلمات اقترنت بأداة التعريف ، وكانت الألف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَاْ** ﴾ (الأحزاب:١٠) ﴿ **يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَاْ** ﴾ (الأحزاب:٦٦) ﴿ **إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ** ﴾ (الأحزاب:٦٧) ».

فلو كان الغرض هو رعاية الفاصلة فحسب لزاد القرآن هذا المد في سورة النساء وفي سورة الفرقان من قوله : ﴿ **ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ** ﴾ (الفرقان:١٧) وفواصلها مطردة على إيقاع فواصل الأحزاب ، بل إن سورة الأحزاب نفسها انفردت فيها فاصلة الآية الرابعة بالكلمة نفسها التي زيد فيها حرف المد ، وهي « السبيل » في قوله تعالى : ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** ﴾ (الأحزاب:٤) فلِم روعيت الفاصلة هناك وأهملت هنا ، والآيتان من سورة واحدة وإيقاع الفواصل فيهما واحد ، لولا أن هناك غرضًا آخر مع الرعاية أو المخالفة؟!

إن إفراد الفاصلة هنا قصد إليه القرآن قصدًا ، كما عمد إليه في الآية الرابعة من سورة الأحزاب ليشير بهذا الانفراد إلى وحدة دين الله ، وانفراده بالحق عن

سائر السبل ، على حد قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣) كما أشارت إلى انفراد الله بالهداية ، وهو ما أكده تقديم لفظ الجلالة وضميره على الفعلين « يقول» و« يهدي» ، والتقديم مفيد للاختصاص الدال على تفرد الله تعالى بالحق فيما أنزله ، والآخذ بنواصي من يشاء من عباده إليه .

كما أن رعاية الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب:١٠) وفي قوله : ﴿ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ (الأحزاب:٦٦) وقوله : ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب:٦٧) أومأ بها القرآن مع ما فيها من الجمال الناشئ عن قانون النظام ووحدة الإيقاع ، إلى الدلالة على عمق الظنون واتساعها في نفوس المنافقين ، فقابل بزيادة المبني زيادة في المعنى ، كما أومأت زيادة المد في الآيتين الأخيرتين إلى زيادة التنديم والتحسر ، كما هو معهود في إطالة الصوت لدى مواقف الحسرة والندم ، وكأنها لون من التنفيس عن الضغوط النفسية ، التي تعتصر صاحبها من الداخل .

ومثال الفاصلة المنفردة بين فواصل متقاربة قوله تعالى : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩) حين سبقها ثمان وثلاثون فاصلة من أول السورة ، وجميعها على روي النون أو الميم المردوفتين بالواو أو الياء ، والفاصلتان قبلها والفاصلة التي بعدها منتهية بالنون المردوفة بالواو ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف:٣٧-٤٠) .

فقد جاءت الفواصل قبلها وبعدها على الروي الغالب في القرآن ، وهو النون المردوفة بالمد الطويل ، وهو إيقاع يناسب أجواء الإقناع والتقرير ، ويتناغم مع نبرة الهدوء والاستقرار ، التي حاول يوسف ـ عليه السلام ـ بفطنة النبوة أن يبلغ بها صاحبيه رسالة ربه ، وأن يتوصل بما علَّمه ربه من تأويل الأحاديث ، وما أجراه الله على يديه من صدق تفسيره للرؤيا إلى إعلامهما بنبوته ، ونبوة آبائه ، مبرزًا بطلان عقيدة الشرك التي هما وقومهما عليها ، فلما اطمأن إلى إقبالهما عليه ، واستماعهما له ، انتقل من الحديث عن نفسه إلى خطاب الصاحبين ، مستخدمًا أسلوب النداء بما فيه من التنبيه والإيقاظ ، منتقلاً منه إلى الاستفهام وهو أسلوب لافت للحس ، يستجمع طاقات المتلقي ، وينقله من طور المشاهد إلى طور المشارك ، ليتهيأ للإجابة عن هذا السؤال الذي لا يقبل العقل السليم منه إلا إجابة واحدة ، ضرورة أن تعدد الآلهة يؤدي إلى فساد الكون ، وقد صاحب هذا السؤال تغير الفاصلة اللافتة بإيقاعها المنفرد إلى وحدانية الله ، وهو الغاية الكبرى في هذا الجواب ، فكانت وحدة الفاصلة تجسيدًا لوحدانية الله ، هذا ما يشير إليه انفراد الفاصلة ، أما من حيث تناسق الإيقاع مع المعنى ، فإن النظم الحكيم آثر روي الراء ، وعدل في الردف من الواو والياء إلى الألف الممدودة ، ليكون هذا الإيقاع الصاعد إلى الأعلى ، المجلجل في فضاء الله تعالى مع ما في حرف الراء من الترجيع والتكرار ، ليملأ اسم الله كل أطباق الوجود ، فلما عاد الحديث إلى التقرير ، وانتقل من خطاب الصاحبين إلى خطاب الجمع عادت الفاصلة إلى النون المردوفة ، الملائمة لإصدار الحكم بجهل القوم حين عبدوا من دون الله أسماء لم ينزل بها الله من سلطان ، ولكي يخفف النظم من حدة الانتقال إلى الإيقاع الغالب في فواصل السورة ، سلك طريقين : أولهما إطالة الآية التالية للفاصلة المنفردة ، حتى إذا ما وصلت الأذن إلى الفاصلة يكون قد طال العهد بإيقاع الفاصلة السابقة ، والثاني تقسيم الآية إلى فواصل داخلية ، يتقارب إيقاعها مع إيقاع الفاصلة المنفردة ، تهيئة للانتقال ، وهي : (سلطان . . لله . . إياه) .

وعلى غرار هذه الفاصلة المنفردة بين فواصل متقاربة جاء قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ (الحج:١٧-١٩) .

فقد جرت فواصل السورة على إيقاع متقارب في الوزن ، ينتهي بحرف مردوف بالواو حينًا ، وبالياء في معظم الأحيان ، كما هو واضح في الفاصلتين الأولى والثالثة ، وجاءت الفاصلة الثانية منفردة بإيقاعها ، حيث انتهت بالهمزة مردوفة بمد الألف ، ليدل هذا المد الصاعد إلى الأعلى ، الذاهب إلى الآفاق ، إلى طلاقة القدرة والمشيئة الإلهية ، ويشير تفرد الفاصلة إلى تفرد الله تعالى بهذه المشيئة المطلقة ، ولذلك قدم لفظ الجلالة (إن الله يفعل) ، ليدل على اختصاص الله وحده بطلاقة الفعل والإرادة ، وهو ما ينسجم مع السياق السابق للفاصلة من سجود المخلوقات جميعها لخالقها طوعًا أو تسخيرًا .

وهذه الفاصلة منفردة بين فواصل متقاربة وزنًا ورويًّا في سورة الأنبياء ، التي بنيت فواصلها جميعًا على روي النون والميم المردوفتين بالواو والياء الممدودتين ، في مائة واثنتي عشرة آية ، لم يتخلف هذا الإيقاع إلا في فاصلة واحدة ، وهو ما يدفع إلى البحث عن سر هذه المخالفة وكسر وحدة النغم في السورة .

إن هذه السورة الطويلة نسبيًّا يدور موضوعها حول العقيدة ، وربطها بالآيات الكونية الدالة على وحدة الخالق ، وتستعرض قصص المرسلين مع أقوامهم ، وما واجهوه من تكذيب انتهى بإنجاء الله أنبياءه ، وإهلاك مكذبيهم ، وإيقاعُ السورة بما فيه من التمكين والتطريب والمد الطويل يناسب تقرير الحقائق ،

وتأمل الظواهر الكونية ، ووحدة الرسالات ومصائر الهالكين «نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظي وإيقاعه الموسيقي هو نظم التقرير ، الذي يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق في عرض هذا الموضوع . . . يبدو هذا واضحًا بموازنته بنظم سورتي مريم وطه مثلاً ، فهناك الإيقاع الرخي الذي يناسب جوها ، وهنا الإيقاع المستقر الذي يناسب موضوع السورة وجوها»[1].

وسط هذا الإيقاع المستقر ، وفي ذروة الحوار بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه ، تأتي هذه الفاصلة الفريدة ، المنتهية بمقطع مقفل يناسب نبرة الحسم والحد ، وفورة الغضب التي استولت على إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين نُكِس قومه على رءوسهم ، بعد أن بدا منهم مراجعة النفس ، وإعادة النظر في عقيدتهم ، وتلاومهم على ظلمهم ، فكان لإيقاع الفاصلة الحاد أثره في الطرق الشديد على نفوس المخاطبين ، لإيقاظ مواطن الإدراك في هذه الرءوس المنتكسة ، والنعي على العقول ، التي قبلت عبادة من لا ينفع ولا يضر ، في محاولة أخيرة يائسة غاضبة قبل إنهاء الحوار ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ** ﴾ (الأنبياء:٦٦) . وأشارت غُربة الفاصلة وانفرادها إلى غرابة تفكير القوم وشذوذه ، وإليك طرفًا من هذا الحوار من قصة إبراهيم ، التي تُعد أطول المشاهد في قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة ، بعد أن قام إبراهيم عليه السلام بتحطيم الأصنام ، ودُعي لمحاكمته أمام الأشهاد ، لترى روعة الإعجاز في كسر الإيقاع ، ومغايرة نظم الفاصلة إيماء إلى شذوذ الفكر وغرابته لدى عبدة الأصنام ﴿ **قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٦٢-٦٧) .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٦٦ .

وقد مهد انتقال الخطاب من الخبر إلى الإنشاء ، مؤثرًا الاستفهام المشحون بالإنكار والتوبيخ ، لانفراد الفاصلة المتواكبة في إيقاعها وجدَّتها مع هذه المعاني ، لتبدأ الآية الأخيرة ، التي أنهى بها إبراهيم حواره بما يدل على قمة ضجره ، ونفاد صبره ، وهو الصبور الحليم (أف لكم) و(أف) كما يقول الزمخشري : « صوت إذا صوّت به علم أن صاحبه متضجر ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها ، بعد انقطاع عذرهم ، ووضوح الحق وزهوق الباطل »[1] ، فلما أفرغ إبراهيم شحنة غضبه بهذا الصوت ، بعد الفاصلة المثيرة الموقظة ، عاد إلى الإيقاع المعتاد في السورة مصدرًا بالاستفهام ، الداعي إلى التأمل والمراجعة ، إن كان ثمة أمل في مراجعة ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

أما الفواصل المنفردة التي تأتي بين فواصل متماثلة الروي متحدة الإيقاع ، لتقطع وحدة الروي ووحدة الإيقاع في غضون السورة ، فمثالها هاتان الفاصلتان من سورة محمد ، التي بنيت فواصلها جميعًا على ضمير الجمع للمخاطب أو الغائب (كمُ ـ همُ) عدا فاصلتي الآيتين : العاشرة والرابعة والعشرين اللتين انتهتا بضمير الغائب المؤنث (أمثالها ـ أقفالها) ، والفرق بين هاتين الفاصلتين وفواصل السورة هو فرق ما بين إيقاع عنيف حاد ، ينتهي بمقطع مقفل ، يلائم قعقعة السلاح وطبول الحرب في هذه السورة ، التي سميت بسورة القتال ، وإيقاع ينتهي بالألف الممدودة ، ويتناغم مع جو الهدوء والتأمل أو التنديم والتحسير .

يقول سيد قطب في تصوير موسيقى السورة : « إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ، يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه في كل فقراتها . وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة (أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم) ، وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء : (أوزارها . أمثالها . أقفالها)[2] .

---

(١) الكشاف ٥٧٧/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٢٨٠/٦ .

ومع أن «أوزارها» ليست من فواصل السورة ، وإنما هي فاصلة داخلية يبقى بعد ذلك السر في خفة الفاصلتين المفردتين الأُخريين ، وعلاقة هذا الإيقاع بالمعنى في سياقهما .

فلنتدبر الفاصلة الأولى المنفردة في سياقها ، لنرى سر عدول القرآن عن روي السورة وإيقاعها : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ (محمد:٤-١١) .

إن المتأمل لهذا السياق يلحظ الشدة في نبرة خطاب الله للمؤمنين ، ودعوتهم إلى استخدام القوة في ردع الكافرين ، وحمل السلاح دفاعًا عن الحق ، وبذل المهج في سبيل نصرة دين الله حتى يكونوا جديرين بنصر الله ، مضيًّا مع سنة الله تعالى في ابتلاء بعض الناس ببعض ، وضرب الباطل بيد أنصار الحق ، حتى إذا ما قرر هذه المعاني في نفوس المؤمنين غيَّر نبرة الحديث ، حين دعا الكافرين إلى التأمل والنظر في مصارع الهالكين من الأمم السابقة ، ولا تزال آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، واستخدم أسلوب الاستفهام التقريري في التمهيد للانتقال من الخبر إلى الإنشاء ، وتهيئة الأسماع لتغيير الإيقاع في الفاصلة ، وهو ما عمد إليه القرآن عمدًا في إيثار الضمير المؤنث المفرد العائد على العاقبة أو الهلكة (أمثالها) ، لأن المد بالألف يناسب الدعوة إلى التأمل وإنعام النظر ، وهو يطلق الخيال لتصور ما ينتظر الكافرين من عقاب لا يقف عند

حدود المثلية ، وإنما هو عقاب مضاعف بما في معنى الجمع من الكثرة ، ولولا أن النظم قصد بهذه المغايرة في الإيقاع نحواً مما ذكرت لجاء النظم (والكافرون أمثالهم) لتحقيق التآلف في النغم .

والفاصلة الثانية المنفردة في هذه السورة جاءت في سياق يكشف سرائر المنافقين ، ويفضح مكنون ضمائرهم ، ويفند حججهم في النكوص عن القتال ، بدعوى أن القرآن لا يتضمن نصًّا صريحًا في الدعوة إلى القتال ، وهم بحاجة إلى سورة محكمة ، فلمّا نزلت هذه السورة المحكمة التي كانوا يتمنونها انكشف أمرهم ، وظهر هلعهم ورعبهم على النحو الفريد الذي صوره القرآن ، وبان أن هربهم من القتال لم يكن بسبب غيبة النص الصريح الداعي إلى الجهاد ، وإنما كان بسبب عمى بصائرهم ، وخَتْمِ الله على أسماعهم ، وقد حفل السياق في بنائه وجرس ألفاظه بالشدة في مواجهة هذا الفريق المخادع ، كما حفل بالتنوع في الأساليب وطرق الأداء ، متنقلاً بين الخبر والإنشاء تارة ، وتلوين الضمائر تارة أخرى ، وثالثة بتغيير الإيقاع في نسق القرائن ، فتطول عند حكاية دعاوى المنافقين ، وتقصر في الردود الموجزة عليها ، وتارة رابعة بتغيير إيقاع الفاصلة : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾

(محمد: ٢٠-٢٥) .

وهكذا تأتي الفاصلة المفردة ﴿ أَقۡفَالُهَآ ﴾ بين فواصل متماثلة منتهية بضمائر الجمع للغائب ، ليجسد المد بالألف الدعوة إلى تدبر القرآن وتأمل معانيه ،

وليومئ طول المدّ بشدة إحكام غلق القلوب ، وعدم نفاذ الحق إليها ، وليتعاون الالتفات من ضمير الغائب ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ إلى ضمير المخاطب ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ ، ثم العودة إلى الغائب مرة ثانية ؛ ليتعاون هذا الالتفات بما فيه من مخالفة للتوقع ، مع المفاجأة التي أحدثها تغيير إيقاع الفاصلة المنفردة في تجديد نشاط السامع وإيقاظه ، وتركيز انتباهه على هذه الأسماع التي تصامت عن الحق ، والقلوب التي ختم الله عليها .

وفي سورة طه يمضي الإيقاع رخيًّا نديًّا في فواصلها المنتهية بالألف المقصورة ، ليسهم جرس الفاصلة في تصوير الأجواء العلوية ، والتجليات الإلهية بظلالها الرفيقة ، وهي تغشى الرسول الكريم ، لتمسح عنه حبات العرق ، وتخفف عنه آثار المعاناة في تبليغ دعوة ربه ، ولتتجاوب مع الأجواء النورانية المصاحبة للنداء العلوي لموسى ـ عليه السلام ــ وخطاب الله له بلا واسطة ، ذلك الإيقاع الصاعد إلى الأعلى بالألف الممدودة ، يقطعه إيقاع فاصلة منفردة ، تستبدل بالألف الممدودة ياء ممدودة ، ثم تعود بعدها الفاصلة إلى رويها السابق .

يستفتح القرآن السورة بهذا الخطاب الرخي الرقيق لنبيه الكريم ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه:١،٢) ثم ينتقل إلى سرد قصة موسى عليه السلام بالإيقاع نفسه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٩-١٥) .

تأمل كيف عدل النظم من الألف الممدودة في روي الفواصل ، وهو إيقاع يناسب أجواء القص ، ويمد الطرف إلى الآفاق العلوية لمشاهدة تجليات الوحي ،

إلى الياء الممدودة ، المسبوقة بالكسر في فاصلة وحيدة ، لتجسد ياء المتكلم التي تكررت ثلاث مرات ، في بداية الآية ﴿ إِنَّنِيٓ ﴾ ، ووسطها ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ، وفاصلتها ﴿ لِذِكۡرِيٓ ﴾ ؛ لتجسد وحدانية الله تعالى ﴿ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ وإخلاص العبادة له وحده ، وليومئ المد المنخفض ، الذاهب إلى أدنى بخفض الرءوس والجباه في الصلاة بركوعها وسجودها ، وليعلن أن هذه الوجوه لا تعنو إلا لله الحي القيوم ، حتى إذا ما وصلت هذه الرسالة إلى المتلقي بإيقاعها المفرد اللافت ، عادت الفاصلة إلى رويها الأول ، لتتأهب لحكاية المناجاة بين الله وموسى ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ . . ﴾ .

وفي السورة نفسها ووسط هذا الإيقاع الملائم للقص ، جاءت فاصلة أخرى مفردة بإيقاع فريد في ختام قصة موسى مع فرعون : ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (طه:٧٧-٧٩) .

فقد جاء الإيقاع رخيًّا في حكاية الله لما جرى بين موسى وفرعون ، وما كان من إبطال الله السحر بعصا موسى ، وما ترتب عليه من إيمان السحرة واستكبار فرعون ، حتى حانت الساعة الأخيرة التي قضى الله فيها بإهلاك فرعون وقومه ، فمضى وحي الله لموسى بالسُّرى وضرب البحر بعصاه على الإيقاع نفسه ، ليلقي الله في قلب نبيه الطمأنينة والهدوء ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ وحين تحول المشهد إلى رصد فرعون وهو يلاحق موسى وقومه ، ويركض خلفهم ، ويندفع إلى اليم بجنوده فيتمرد عليهم ، وينقلب هدوءه ثورة عاصفة غاضبة تلتهم فرعون وجنوده ، تحولت الفاصلة إلى الإيقاع العنيف ، الملائم لهذه النهاية المرعبة ، فكانت الفاصلة المنتهية بذلك المقطع المقفل ، والسكون الحي ، لتجسد هذه النهاية السريعة الحاسمة ، وتلفت القارئ لفتًا شديدًا إلى العاقبة المروِّعة التي انتهى إليها هذا الطاغية ، وقد تعاون إيقاع الفاصلة المفردة مع الالتفات من ضمير الخطاب « فاضرب . . لا تخاف . .

لا تخشى» إلى الغائب «فأتبعهم» ليتوارى مشهد موسى وقومه بعد نجاتهم ، ويبرز مشهد الهلاك الرهيب ، الذي هوَّل النظم من شأنه بهذا الإبهام ، الذي تذهب معه النفس كل مذهب ﴿ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾ .

وهذه سورة المدثر الغنية بتنوع موسيقاها وفواصلها ، في مقاطع يحتفظ فيها كل مقطع بوحدة الروي ، مع التوازي أو التقارب في الفواصل ، في تناغم عجيب بين المعنى والإيقاع ، يعمد القرآن في بعض المقاطع إلى فاصلة منفردة ، يحدث بها مفاجأة لافتة ، ثم يعود إلى الروي السابق . ويحسن هنا أن أنقل كلامًا لسيد قطب أجمل فيه إيقاع هذه السورة : «وهذه السورة قصيرة الآيات ، سريعة الجريان ، منوعة الفواصل والقوافي ، يتَّئد إيقاعها أحيانًا ، ويجري لاهثًا أحيانًا ، وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذِّب ، وهو يكفر ويقدر ، ويعبس ويبسر ، وتصوير مشهد سقر ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ ﴾ ومشهد فرارهم ﴿ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴾ ، وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال ، يجعل للسورة مذاقًا خاصًّا ، ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها ، كقافية الراء الساكنة : (المدثر . . أنذر . . فكبر . .) وعودتها بعد فترة : (قدّر . . بسر . . استكبر . . سقر) وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ، ولكن لهدف خاص»[1].

هذا الهدف الخاص الذي لم يفصح عنه الكاتب بعد هذا الكلام الدقيق ، هو ما نعرض له في فاصلتين منفردتين في هذه السورة .

أولى الفاصلتين جاءت في هذا المقطع الذي يتهدد فيه الوليد بن المغيرة على ما جاء في كثير من الروايات[2] : ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٥٣ ، ٣٧٥٤ .

(٢) ينظر مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ص ٢٠٢، جلال الدين السيوطي ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط١، عام ١٩٨٧ .

﴿ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ (المدثر:١١-١٧)، فقد اختار النظم في مواجهة هذا المكذب إيقاعًا بطيئًا مطولاً ، يعتمد على مدَّين : أحدهما ألف المد المنقلبة عن التنوين ، والثاني المد بحرف اللين الواقع ردفًا للروي ، وكلاهما تعاونا في إطالة إيقاع الفاصلة ، بما يناسب نبرة التهديد والوعيد ، وكأنه يضغط بهذا الإيقاع الممتد على نفس المكذّب ، ويطبق على أنفاسه ، ولعل هذا هو السر في اختيار الدال ، وهو حرف شديد مجهور ليكون رويَّ هذا المقطع ، وربما هو السبب الذي من أجله أطال الله وصف هذا الجاحد العنيد .

في وسط هذا الإيقاع المتئد ، والروي المتحد ، تأتي هذه الفاصلة المنفردة ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ بدال موقوف عليها بالسكون ، لتحدث المفاجأة بمخالفة التوقع ، وتلفت هذه الفاصلة الفريدة جاراتُها السمع والحس إلى غرابة هذا المطلب بعد الكفران بنعم الله الكثيرة المتعددة ، مبرزة التناقض الفكري والسلوكي الذي أشار إليه الطاهر بن عاشور : « لأنه طمع في زيادة النعمة ، غير متذكر أنها من عند الله ، فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجًا بتذكيره بأن ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته ، فأشرك به غيره في العبادة . ولهذه النكتة عدل عن أن يقال : يطمع في الزيادة أو يطمع أن يزداد»[1] . ولذا صدرت هذه الآية بحرف العطف « ثم» بدلالته على الاستبعاد والاستنكار[2] ، وأنهيت الفاصلة بالدال الساكنة بما فيها من القلقلة التي يضطرب معها اللسان عند نطق الحرف ، لتجسد هذا الفكر المضطرب .

والفاصلة الثانية المنفردة جاءت بين مقطعين يختلفان في إيقاعهما ورويهما : الأول إيقاع عنيف حاد ، يُقسم الله تعالى فيه بالآيات الكونية المنظورة مهددًا

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٥ .
(٢) الكشاف ٤/١٨٢ .

ومنذرًا ، والثاني إيقاع هادئ مستقر ، يتناغم مع جو الطمأنينة والسكينة لأصحاب اليمين ، الذين يتساءلون عن المجرمين ما الذي ألقاهم في عذاب الله؟ ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

(المدثر:٣٢-٤٠) .

بين الفواصل المتحدة السريعة الإيقاع ، الشديدة الطرق ، المنتهية بروي الراء بما فيه من أصداء يُحْدِثها التكرار والرجع في هذا الحرف ، والفواصل الهادئة الإيقاع ، المنتهية بالنون المردوفة بالواو أو الياء ، تأتي الفاصلة المنفردة ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ لتجسد انفراد كل نفس بمصيرها ، وتحمِّلها وحدها أوزارها ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ ، انفراد في الإيقاع يقابله عزلة وانفراد في الحساب والجزاء ، ذلك ما يهدف إليه النظم ، وهو سر العدول عن الإيقاع المنتظم في هذه الفاصلة عن الروي بعدها ، إذ كان من الممكن أن يأتي النظم هكذا ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ كما جاء في الآية الحادية والعشرين من سورة الطور ، وحينئذ يتسق الإيقاع مع الفاصلة بعده ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ . وهذا يدحض القول بأن القرآن يعمد إلى التشاكل اللفظي في الفواصل ، حتى لو اضطر إلى مخالفة قواعد النحاة ، وهذا ما نبَّه إليه صاحب كتاب نظم الدر ، ورد به على من يزعم أن القرآن يعدل عما يقتضيه السياق مراعاة للفواصل : «ولو كانت الفواصل التي يعبرون بها عن السجع تأدبًا تراعي في القرآن بوجه ، لقيل (رهين) لأجل (يمين) ، ولكن لا نظر فيه لغير المعنى»[1] . وأنا أقول إن القرآن يعمد إلى المخالفة في نسق الفواصل لإحداث المفاجأة ، ولفت الحس والقلب إلى معنى تؤمئ إليه الفواصل المنفردة في رويها وإيقاعها .

---

(١) نظم الدرر ٢١/٧١ .

وفي سورة القيامة يتنوع إيقاع الفواصل بتنوع أجواء السياق ، فيأخذ صورة موجات موسيقية متتابعة ، تبدأ في الآيات الخمس الأولى بإيقاع هادئ يعتمد على توازن الفواصل واتحادها في الانتهاء بالهاء الساكنة ، المسبوقة بالميم أو النون المردوفتين بالألف الممدودة ، وهو إيقاع يناسب الاستفهامات الإنكارية ، التي يدحض الله بها حجج المنكرين للبعث ، حتى إذا ما بدأ النظم يصور أحداث يوم القيامة بأهوالها وأحداثها المتسارعة تحول الإيقاع إلى طرقات سريعة متلاحقة ، مصورة لأجواء هذا اليوم ، في الآيات من السادسة إلى الثالثة عشرة ، ثم يعود الإيقاع إلى الهدوء في فواصل الآيات من الرابعة عشرة إلى الخامسة والعشرين ، متناغمًا مع الدعوة إلى تأمل الذات ، ووعد الله تعالى بجمع القرآن وبيانه ، وعرض أحوال المؤمنين والكافرين ، ينتقل بعدها الإيقاع إلى البطء في تصوير النهاية المحتومة للإنسان ، وما ينتظر الكافر من الويل والعذاب ، في فواصل تحكي بجرسها نبرة التنديم والتحسير .

في هذا الإيقاع المتموج في دفقات موسيقية تعتمد على توازن الفواصل ووحدة الروي في كل موجة ، كَسَرتْ وحدة الإيقاع فيها فاصلتان منفردتان : الأولى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ ، وقد سبقتها فاصلتان على روي الراء المسبوقة بياء المد ، المعقَّبة بالهاء الساكنة ، وتلاها فواصل على روي النون المردوفة بالألف المنتهية بالهاء الساكنة . والملاحظ أن هذه الفاصلة المفردة ، المكونة من مقطع واحد مقفل جاءت بهذه الحدة في الإيقاع ، لتحاكي المعنى ، حيث كان الرسول ـ عليه السلام ـ يتعجل بالقرآن خوف أن يتفلت منه ، فحاكت الفاصلة في سرعتها عجلة الرسول بالقراءة ، وقد اقترن بالمفاجأة في هذه الفاصلة ، ومخالفتها للتوقع ، مفاجأة أخرى تتمثل في الانتقال الفجائي من أحداث يوم القيامة وما يصاحبها من الجزاء إلى نهي الرسول عن التعجل بتلاوة القرآن عند نزول الوحي ، وعاد الضمير في (ربه) على غير مذكور ، وهو القرآن ، اعتمادًا على الحضور الذهني ، فكان لهاتين

المفاجأتين دورهما في قطع استرساله ـ عليه السلام ـ في تحريك لسانه بالقراءة، بالسرعة نفسها التي انتهت بها الفاصلة، وهذا هو السياق ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٤-١٩).

والفاصلة الثانية المفردة عجيبة مدهشة في إيقاعها، وفي تصويرها للمعنى، وفي دلالة تفردها، وهي قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾، وهذا هو موقعها في سياقها: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٢-٣٠).

وقعت الفاصلة المنفردة بين إيقاعين: الأول توازنت فيه الفواصل، واتحد رويها، وهو إيقاع هادئ مستقر يناسب جو الوصف، اعتمدت فيه الفاصلة على تعادل المقاطع في الفواصل، يبدأ كل منها بمقطع متوسط مفتوح، وينتهي بمقطع متوسط مقفل، وبينهما مقطع قصير، «ناضرة . . ناظرة . . باسرة . . فاقرة»، والإيقاع الثاني الذي ولي الفاصلة المفردة بنيت فواصله على مقطع طويل المد، وهو عبارة عن صوت يتلوه المد، وبعد المد سكون[1] «راق . . فراق . . ساق . . مساق»، وهذا المد الطويل المنتهي بقاف ساكنة، يصاحبها قلقلة شديدة في مخرجها من أقصى اللسان، يحاكي حشرجة الروح عند الموت. أمَّا الفاصلة المنفردة «التراقي» فقد صحبها مفاجأة كتلك التي صحبت «لتعجل به»، حيث عاد الضمير في «بلغت» على غير مذكور، وهو أمر يشحذ قوى العقل للبحث عن مرجع الضمير، ثم جاء تغير إيقاع الفاصلة

(١) ينظر البيان في روائع القرآن ص ٢٦٠، ٢٦١، دكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ط١، عام ١٩٩٣م.

ليحاكي عُسر خروج الروح ، وطول المنازعة بهذين المدين الطويلين : الأول صاعد إلى الأعلى ، والثاني ذاهب إلى الأسفل ، ليصور خير تصوير حشرجة الروح في الصدر وتقطع الأنفاس ، وشدة النزع ، ولهذا جاء «التراقي» جمعًا ، مع أن للإنسان ترقوتين فحسب ، وهما موضع الحشرجة : «ولعله جمع المثنى ، إشارة إلى شدة انتشارها بغاية الجهد ، لما هي فيه من الكرب» [1] . وطلب الخفة في اللفظ لما في المثنى من الثقل . هذا إلى جانب ما يجسده انفراد الفاصلة من بداية الفراق ، وانفراد الميت بمصيره ، وذهاب الأهل والخلان عنه .

وفي سورة الزمر تطالعنا فاصلة منفردة أشاعت ضربًا من المغايرة أَبْعد ذهن القارئ عن توقع التكرار ، وبعث الاستشراف إلى معنى مغاير فيما بدا فيه اتحاد اللفظ يومئ إلى اتحاد المعنى . وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر:١١-١٥) ؛ فقد جرت فواصل الآيات السابقة واللاحقة على سَنَن الفواصل الغالبة في القرآن ، المعتمدة على روي النون والميم المردوفتين بالياء أو الواو ، وانفردت الفاصلة الرابعة عشرة بإيقاع مغاير زيد فيه المد بياء المتكلم «ديني» لتجسد بانفرادها ومغايرتها رفض النبي ـ عليه السلام ـ لما أجمع عليه قومه من الشرك ، وتبرز المفارقة بين الموقفين ، إلى جانب ما أحدثه كسر الإيقاع من أثر في تبديد توقع التكرار في المعنى بين هذه الآية والآية الحادية عشرة التي تواطأت معها على ألفاظ واحدة ، والتنبيه إلى تغير في الدلالة بينهما . فبينما كانت الآية الأولى استجابة منه ـ عليه السلام ـ لأمر ربه بعبادته وإخلاصها له ، جاءت الآية التي انفردت

(١) نظم الدرر ٢١/١٠٨ .

بفاصلتها ، واتحدت معها في ألفاظها ، رفضًا لدعوة المشركين له إلى عبادة آلهتهم واتخاذها قربة إلى ربه على ما يدينون به كما صرحوا به في صدر السورة ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ ، لذلك اختلف النسق في نظم الآيتين ، فقُدِّم الفعل في الأولى ، وقدِّم المعبود في الثانية ، وأطلق الدين في الأولى ﴿ مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ وقيد بالإضافة في الثانية ﴿ مُخۡلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ لتتعاون المغايرة في النسق مع المغايرة في إيقاع الفاصلة على شحذ طاقة المتلقي وإثارته لإدراك التفاوت في المعاني والأغراض ، وهو ما أوضحه بجلاء جار الله الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾؟ قلت : ليس بتكرير ، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص ، والثاني إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصًا له دينه ، ولدلالته على ذلك قدَّم المعبود على فعل العبادة ، وأخره في الأول ، فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيحائه ، وثانيًا فيمن يفعل الفعل لأجله »[1].

وقد كان لياء المتكلم في الفاصلة المنفردة ، المسبوقة بالكسر ، أثرها في تجسيد إصرار الرسول ـ عليه السلام ـ على التمسك بدينه ، واعتزازه بشرف العبودية لمن يدين له ، وكأن هذا المد النازل إلى الأدنى سجود طويل بالإيقاع يصاحب السجود بالأعضاء .

ولكسر الإيقاع بالفاصلة المنفردة إيماءة لافتة في سورة الرحمن ، التي بني إيقاع فواصلها على روي الميم والنون المردوفتين بألف المد ، الذي يتضاعف مده بالسكون العارض للوقف ، ليشيع أنغامًا رخيَّة هادئة ، تناسب أطباق التأمل في آيات الله ، المبسوطة في السماء والأرض ، ويحلق المد الصاعد بالأبصار في أطباق الفضاء ، لتشاهد رحمة الله يتنزل بها الروح الأمين على قلب رسوله ، وتبصر آثار نعم الله في سمائه وأرضه ، حتى إذا استوفى النظم الحكيم غايته

---

(١) الكشاف ٣٩٢/٣ .

من استجلاء الأعين والعقول ما أضافه الله تعالى من النعم على الإنس والجن ، وغمر به الكون كله ، فاجأنا بفاصلة حادة حاسمة ، يجري فيها الصوت سريعًا من الحلق إلى طرف اللسان ، ليحاكي صوتُ الفاصلة الحسم والقطع وزنًا ومعنى ، مُنهيًا مقطعًا طويلاً من التأمل الهادئ ، مختتمًا أجواء التساؤل المتئد ، بمدوده وتكراره ، ناعيًا على الثقلين كفرانهما بآلاء ربهما ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لينتقل إلى لون من الخطاب يتسم بنذر التهديد والوعيد : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

(الرحمن:١٩-٢٩) .

اختتام هذا المشهد الكوني الذي يعكس على الأعين سطورًا من آلاء الله بهذه الفاصلة المنفردة في إيقاعها «شأن» ، المنتهية بسكونين حيين ، المحاكية لمعنى الحسم ، والمفاجئة للسمع بهذا الطَّرْق القوي ، المغاير لأنغام الفواصل قبلها وبعدها ، قصد به لفت القلوب والأبصار إلى هذا الشأن «وهو الشيء العظيم ، والحدث المهم من مخلوقات وأعمال من السموات والأرض»[1] .

والشأن لا يقال ـ كما قال الراغب ـ إلا فيما يعظم من الأمور[2] وهو الذي شاء النظم الحكيم أن يكون فاصلة الآية ، لتنال حظها الأكبر من التركيز ، بعد أن قدّم عليه متعلقه «كل يوم» ، وأعيد معه ذكر الضمير «هو» ملوحًا بانفراده تعالى بالهيمنة على شئون خلقه ، فتلاقى انفراد الفاصلة مع انفراد الله بتدبير أمور عباده في سمائه وأرضه ، ونقلت الفاصلة المتلقي بإيقاعها المنفرد من

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٥٥ .
(٢) المفردات في غريب القرآن ص٣٩٧ .

الاستغراق في تأمل المخلوقات إلى مشاهدة الخالق وهو يقسم أرزاق العباد وآجالهم ، يَرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، يهب الحياة لمن يشاء ، ويقبضها ممن يشاء . إنها صيحة إيقاظ ، تحول الأبصار من تدبر الآثار إلى مشاهدة يد المؤثر .

وقد هيأت هذه الفاصلة بكسر الإيقاع للانتقال من الحكاية بضمير الغائب ، الذي انتظم السياق منذ مطلع السورة ، إلى الخطاب المهدد المتوعد ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وهكذا أدت الفاصلة المنفردة دورها في تجديد نشاط السامع ، وتهيئته لاستقبال خطاب جديد ، ينقلنا من كون هادئ حافل بآلاء الله ، إلى انقلاب هائل في ذلك الكون ، يتصاعد فيه اللهب والدخان ، وتتشقق فيه السماء ولا يجد فيه العصاة مهربًا من الله إلا إليه .

هذا الانتقال بنبرته الحادة في الخطاب لاءمه تمام الملاءمة تغيير الإيقاع في الفاصلة بما فيه من الجِدِّ والحسم ، ليهيئ خطابًا جديدًا « إن التأثير الذي تولده المفاجأة يعتمد على ما إذا كان العنصر الجديد يمكن استيعابه في الاستجابة الكلية ، أو إذا كان الذهن مضطرًا إلى أن يبدأ بداية جديدة كلية عند وصول هذا العنصر الجديد » [1] .

وهذه فاصلة منفردة جاءت بعد إيقاع سريع لاهث يعكس حركة المعاني الحافلة بالعصف والقصف ، فكانت بإيقاعها المنفرد أشبه باستراحة المسافر والانتهاء إلى النتيجة بعد عناء المقدمات ، أو هي أشبه بإرخاء العنان بعد شدة القبض ، ليدرك المتلقي ما كان غائبًا عنه بعد هزه هزًّا عنيفًا ، ذلك ما نلمسه في مطلع سورة المرسلات ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (المرسلات:١-٧) حيث ختم هذا المقطع الصاخب ،

(١) مبادئ النقد الأدبي ص ١٩٣ .

بفاصلة مفردة مغايرة لما قبلها في إيقاعها ، ورويها ، وطول قرينتها ، إذ سبقت بفواصل منتهية بمقاطع مفتوحة ، ومدَّ صاعد إلى الأعلى ، مُحاك للأجواء المفتوحة ، التي تسبح فيها الملائكة ، وتعْصف فيها الرياح . وألفُ المد الموقوف عليها حرفٌ من حروف اللين ، التي تسمح بتسرب النَّفس معها ، وهي تلائم الحركة العنيفة اللاهثة ، التي صورها القرآن بجمل قصار حادة في موسيقاها ، وفواصل مكونة من مقطعين مفتوحين ، ليفاجئنا بفاصلة مغايرة ، مكونة من ثلاثة مقاطع ، منتهية بمقطع مقفل يومئ إلى نهاية المضمار ، وحسم النتيجة ، ويأتي رويها حرفًا مجهورًا تحتبس معه الأنفاس ، يدوي بالحقيقة التي أنكرها المشركون ؛ وهي البعث والجزاء ، وترمز الكسرة قبل الروي إلى حركة ارتداد البصر من الآفاق إلى الأرض ، ليشاهد المنكرون الحقيقة واقعة ماثلة بين أيديهم . وهكذا صوَّرَت الفاصلة بمفاجأتها مفاجأة المشركين بواقع كانوا يمارون فيه ، وحقيقة طالما أنكروها ، ليستيقظوا على نذر هذا اليوم وما يصاحبه من انقلاب كوني يسبق موقف البعث والجزاء ، وهو ما بدأ القرآن في سرد أحداثه المروِّعة بعد هذه الفاصلة ، مفتتحًا مشهد الانقلاب بالفاء وإذا ، بدلالتهما على السرعة والمفاجأة : ﴿ **فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ** ﴾ (المرسلات:٨-١٠) لتتعانق هذه الدلالة مع المفاجأة التي أحدثها كسر الإيقاع بالفاصلة المنفردة .

وفي سورة النازعات التي تنوعت فواصلها بتنوع أجواء الحديث فيها ، من فواصل قصيرة لاهثة ، تصورت حركة الطوائف التي أقسم بها ، إلى فواصل تنتهي بهاء ساكنة ، تصور تقطُّع الأنفاس مع أهوال يوم القيامة ، ثم إلى فواصل أخر رخية هادئة ، يعتمد رويها على الألف المقصورة ، التي تناسب لمسات الحنان والرضا ، وكأنها تربت على ظهر النبي ـ عليه السلام ـ وتجفف مآقيه ، وتهون عليه ما يلاقيه من عنت قومه ، حين يقص الله تعالى عليه في خطاب مباشر طرفًا مما حدث لموسى مع فرعون ، تسلية له وتأسيًا بأولي العزم من

الرسل ، ثم ينتقل الحديث إلى خطاب مشركي مكة ، المكذبين بالبعث ، منكرًا عليهم تعاليهم واغترارهم بقوتهم ، واضعًا أمامهم عظائم قدرته فيما يقع تحت أعينهم وأيديهم ، مما ألانه الله تعالى وسخره لهم . واختار النظم الكريم فاصلة الهاء المردوفة بالألف المعقبة بألف المد ، ليجتمع لها مدان يطيلان زمن الفاصلة ، مما يمكن المخاطبين من تأمل عجائب خلق الله ـ تعالى ـ في السماء والأرض ، ومشاهدة قدرة الخالق في هذا البناء المحكم ، الذي أقامه فوقهم بغير عمد يرونها ، وهذا التدبير العظيم الذي أجرى به حركة النجوم والكواكب ، وما صاحبهما من توالي الليل والنهار ، بمقادير تهيئ للإنسان قدرًا محسوبًا من الحركة والسكون ، يتمكن بهما من عمارة هذه الأرض التي بسطها وهيأها لسكناه ، وأودع فيها ما يحقق له قوام الحياة والاستمتاع بها ، ثم ينهي القرآن هذا الحديث بفاصلة مفردة ، تنتهي بمقطع مقفل ، تنضم فيه الشفتان ، إعلانًا بإغلاق هذا الحديث الذي صور الجانب الكوني في هذه الحياة الدنيا ، ليستأنف النظم الحكيم بعد ذلك حديثًا عن الآخرة ، ولتكون هذه الفاصلة التي تصور بجرسها موقف الجد والحسم ، مشيرة إلى الحكمة الكبرى من هذا الخلق العظيم ، وهي تسخيره لنفع الإنسان والتمكين له في الأرض ، مؤذنة بانقطاع الحوار ، وتوقف حركة السعي والعمل ، لتبدأ ساعة الحساب والجزاء وإليك الآيات : ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾

(النازعات:٢٧-٣٣) .

وهذه الفاصلة نفسها وردت بألفاظها ودلالتها في سورة «عبس» ، وللغاية عينها ، بعد أن وجّه الله ـ تعالى ـ نظر الإنسان إلى ما أجراه ـ تعالى ـ بين يديه ، من نِعَمٍ تجمع بين الجلال والجمال معًا ، تفتح عينيه على جمال الكون

المتمثل في المناظر البديعة التي تخرجها الأرض من أشجار ونباتات ، تتنوع ألوانها وأشكالها وثمارها في حدائق زينها الله للناظرين ، وقد جاءت فواصلها بألف المد المنقلبة عن التنوين ، وهو روي رخي هادئ يتيح بمده وألفه الصاعدة إلى الأعلى ، إنعام النظر في الأفق الممتد لتحلق معه الأبصار في كون الله الفسيح ، ولتأتي الفاصلة المفردة فتلفت بانفرادها إلى الغاية من هذا الخلق ، الذي جمع بين المتعة والجمال ، ولتؤذن في حسم وجد بنهاية حديث الدنيا ، واستئناف أحداث الآخرة : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس:٢٤-٣٢) .

وكما بدأ حديث الآخرة في سورة النازعات بعد تلك الفاصلة مباشرة بقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ بدأ حديث الآخرة في سورة «عبس» ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ ، وهو دليل واضح على أن هذه الفواصل يوزعها الله تعالى في نظمه بقدر ، ولا تخضع للصُّدَف واستطرادات الكلام .

وقد كان للدكتورة بنت الشاطئ فضل الإشارة إلى الانتقال من الاستدلال على قدرة الله في خلق السماء والأرض إلى بيان فضل الله ونعمته على الإنسان ، والشبه القائم بين السياقين وطرائق النظم في سورتي النازعات وعبس ، وإن لم تقف عند مواكبة هذا الانتقال بتغيير الفاصلة الذي مهد للحديث عن أجواء الآخرة بعد الحديث عن آثار قدرة الله ونعمه في الدنيا[1].

ومما يؤكد حكمة الله تعالى في سوقه هذه الفواصل بأقدار منتظمة شبيهة بنظم آيات النازعات وتوزيع فواصلها ما نراه في سورة الزلزلة ، حيث جاءت فواصلها مؤسسة على مدٍّ بالألف ، ومنتهية بروي الهاء المعقبة بألف المد ، وهي تتيح بطولها ومد أصواتها فرصة تأمل هذا الانقلاب الهائل الذي يحدث

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ١٥٣/١، بنت الشاطئ ، دار المعارف ، ط٥ .

في الأرض ، ويهيئ ليوم عظيم يجد فيه الإنسان نفسه وحيداً أمام ربه ، ثم تأتي الفاصلة المنفردة مجسدة هذه الوحدة والانفراد في هذا اليوم ، الذي يساق فيه الإنسان إلى ربه فرداً . والشبه بين هذا المشهد ونظيره في سورة النازعات هو هذه الفواصل التي انتهت بالهاء ، واجتمع فيها مدان في إيقاع بطيء قصد به تمكين المشاهد من رؤية دقائق الأحداث ، والفاصلة المنفردة التي انتهى بها المشهدان في السورتين منتهية بمقطع مقفل يمثل غاية الجد والحسم ، ويمهد لساعة مليئة بالأهوال والشدائد . وكلاهما كان رويّه الميم الساكنة التي تغلق عليها الشفتان ، إيذانًا بنهاية فصل وبدء فصل آخر من الأحداث ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ** ﴾ (الزلزلة: ١-٦) .

وقد جاء لفظ « أشتاتًا » الموحي بالتفرق ، وفرار الأخ من أخيه ، وأمه وأبيه ليلفي نفسه وحيداً في ساحة الحساب ـ جاء متناغمًا مع انفراد الفاصلة ، التي عكست بانفرادها وحدة المرء وانفراده عند لقاء ربه .

وهذا دليل آخر على أن القرآن يوزع أنغامه على جملة فواصله بالقسطاس ، فيجمع بين وحدة النغم التي تشبع رغبة التوقع حينًا وكسر هذه الوحدة حينًا آخر درءًا للرتابة والملل ، وتطرية لنشاط السامع ، ولفتة إلى غرض يومئ إليه تغيير الإيقاع ، وكل ذلك يخشع لنسق موسيقي لا تقود إليه الصدفة ، ولا تعرض له الفوضى .

فهاتان فاصلتان مفردتان وقعتا في سورتين اتفق مطلعهما في تصوير الانقلاب الكوني ، الذي يمهد لفناء الدنيا على مشارف يوم القيامة ، وتميز المطلعان بالإيقاع الموسيقي الحاد الذي يعكس عنف الأحداث وشدتها ، من انشقاق السماء وتناثر كواكبها وتفجر البحار ، وتبعثر ما في القبور ، ونسف الجبال ؛ فجاءت الجمل قصاراً سريعة الإيقاع ، وجاءت فواصلها حادة حاسمة

منتهية بمقاطع مقفلة تجسد انحباس الأنفاس من الرعب والفزع : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:١-٦) ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ (الانشقاق:١-٦) .

هذا الاتساق العجيب في مطلع السورتين في تصوير الحدث واختيار الإيقاع الموسيقي الحاد ، المعتمد على الجمل القصار ، ومقاطع الفواصل المقفلة ، ثم الاتفاق في عدد الجمل القصار المصورة لهذا الانقلاب الكوني وهي خمس جمل ، والتقارب الشديد في المقاطع الصوتية للجمل ، والاتفاق في تعقيب المشهدين بفاصلة مفردة اعتمدت على مقاطع مفتوحة تخلَّلها مدٌّ طويل ، وهو إيقاع شديد الهدوء ، يعكس أجواء أخرى يلتقط فيها السامع أنفاسه ، ويراجع نفسه ويرتِّب أوراقه . إنها فاصلة تتناسب مع مواقف العتاب واللوم والتنديم ومراجعة الذات ، مصورة الغرض الذي عدل إليه القرآن في السورتين ، ولذلك صدرت الفاصلة المفردة فيهما معًا بالنداء ، وهو أسلوب تنبيه وإيقاظ ، وأتبع المنادى بما يذكره بطبعه وغايته ، ويلفته إلى بدئه ونهايته ، ويوجه نظره إلى من له الخلق والمآب ، وجاء انفراد الفاصلة فيهما مخالفًا للتوقع ، لتلفته بشدة إلى ربه الذي أبدع صنعه وأحسن خلقه وإليه مرجعه ، وهو الذي غاب عنه في غمرة حياته واغتراره بنفسه ، مما يقطع بأن وحدة الفواصل أو اختلافها يجري وفق نظام أحكمه منزل الكتاب ، وقد سبق أن وقف الدكتور أحمد أبو زيد أمام قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ وما صاحبه من تغير في مقاطعه عن الآيات التي سبقته ، ورأى فيه استجابة للمعنى ، « هذا بيان لمعنى ذلك الخطاب القرآني البليغ ، الذي قصد به تقريع الإنسان وتذكيره بمصيره المحتوم . وقد عبرت المقاطع المفتوحة التي تخللتها حروف المد

الطويل أصدق تعبير عن هذا المعنى . وهذا النوع من المقاطع يستدعي امتداد الصوت عند التلاوة ، وهذا الامتداد في النطق يناسب التعبير عن الامتداد في الزمن الذي يستغرقه الإنسان في الكدح ، والجد في الكسب ، وكأن المراد من استخدام هذه المقاطع أن يشارك الإيقاع الصوتي للآية في أداء المعنى» [1] .

ولعل هذا يلتقي مع ما ذكره القاسمي في تفسيره معللاً لذكر الكريم : «وذكر ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار ، لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل في نعوته ، ومن كان كذلك فجدير بأن يُرهب عقابه ويُخشى انتقامه وعذابه ، لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد في الرهبة» [2].

(١) التناسب البياني في القرآن ص ٣٤٤ .
(٢) محاسن التأويل ٦٠٨٥/١٧ .